من حديث الشهداء

للدكتور طه حسين

لم يذكروا فى تلك الليلة ماضيهم الحلو ، وحاضرهم المر ، ولم يتحدثوا عن اوطانهم تلك النائية التى كانوا ينعمون فيها بلذات الحياة ، ويستمتعون فيها بخفض العيش ، ويسيرون سيرة الاحرار لا يعرفون لاحد غير قيصر وعماله عليهم سلطانا ، وقد يعرف لهم غيرهم كثيرا من السلطان والبأس ، وقد يقدم اليهم غيرهم كثيرا من آيات الطاعة والاذعان . ولم يسمروا بهذه الاحاديث التى تعودوا ان يسمروا بها إذا فرغوا من اعمالهم وانصرفوا الى راحتهم ولقى بعضهم بعضا حين يقضى النهار ويتقدم الليل ، والتى كانوا يستعيدون بها حياتهم تلك الجميلة المشرقة ، ويستحضرون بها مواطن لذاتهم ونعيمهم ، هناك حيث لا يشتد القيظ حتى ينضج الجلود ويصهر الاجسام ، وحيث لا تقع العين على الجبال الجرد والوهاد المقفرة ، وحيث لا تضيق الارض بالناس ولا يضيق الناس بالارض ، وحيث يستقبل الناس ايامهم راضين باسمين ، ويشتقبلون لياليهم لاهين عابثين . كلا ولم يسمروا فى تلك الليلة بما كانوا يسمرون به من ذكر الفاتنات المفتونات اللاتى كن يحولن حياتهم احلاما ويجعلن جدهم لعبا ، ويسرين عنهم كل هم ، ويغرين بهم كل نعيم ، يخلبنهم باللفظ واللحظ ، ويعذبنهم بالدل والتيه ، ويسعدنهم بالقرب والوصل ، كلا ولم يسمروا فى تلك الليلة بأحاديث قيصر وقصره ، ولا بأنباء الحاكم وحاشيته ، ولا بقصص الحرب بين الفرس والروم ، وأين هم الآن من قيصر وقسطنطينية ؟ واين هم الآن من تلك القصور الباسمة القوية التى كانت تبسم لاهلها كأنها الجنات ، وتعبس لاعدائها كأنها الجحيم . واين هم الآن من الفرس والروم ؟ واين تكون مكة من ميادين الحرب بين الفرس والروم ؟ كلا . ولم يسمروا فى تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحيانا من أحاديث سادتهم ومواليهم ، وبما كان يتصل بينهم من التنافس والجهاد ، وبما كان يدبر بينهم من الكيد والمكر ، وبما كان يجتمع لهم من الغنى والثراء ، وبما كان يلم بهم من الحوادث والخطوب كلا ، ولم يسمروا فى تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحيانا من أحاديث هذه القوافل التى تفصل من مكة الى الشام ، فتمضى معها نفوسهم تسايرها فى تلك الطرق البغيضة التى يذكرون طولها وثقلها حين قطعوها عناة أذلاء يسوقون الى مكة عبيدا أرقاء ، والتى كانت تعود الى مكة قافلة من الشام تحمل من أرض قيصر أنباء مختلطة وأحاديث مشوهة مضطربة ، ولكنهم كانوا يتلقفونها ثم يتناولونها بالتأليف والتصنيف ، وبالتحليل والترتيب ، حتى يكونوا منها شيئا مستقيما أو كالمستقيم ، ثم يتحدثون منه علما بأمور أوطانهم تلك التى لم يبق لهم اليها سبيل .

كلا . لم يسمروا فى تلك الليلة بشىء من هذا ، لأن أحاديث مكة شغلتهم عن كل هذا ، وما لها لا تشغلهم وصاحبهم نسطاس قد اشترك فيها وأثار كثيرا منها ، وها هو ذا قد اتخذ مكانه بينهم كئيبا كاسف البال ، محزونا بادى الحزن ، قد اضطربت نفسه أشد اضطراب . وهو يتحدث اليهم فى صوت متقطع مظلم كأنما أسبغ الحزن والندم واليأس عليه ظلة كثيفة متراكمة لا تنكشف عن شىء . وما له لا يكتئب ولا يبتئس ، وما له لا يحزن ولا يندم ، وما له لا يفزع ولا يجزع ، وقد سفكت يده المسيحية دما بريئا ولما ينتصف النهار : أو كان هؤلاء النفر جماعة من نصارى الروم دفعوا الى بعض أطراف الصحراء وعدت عليهم بعض القوافل فاتخذتهم تجارة ، وتقلبت بهم ظروف الرق حتى انتهوا الى ملك جماعة من سادة قريش . وكان نسطاس أنقاهم ضميرا ، وأصفاهم قلبا ، وأعظمهم حظا من الدين . وكان لهذا كله أصبرهم على ما ألم به من كرب ، وأحسنهم احتمالا لما سلط عليه من محنة ، ورضى بهذه النكبة التى كان ينظر اليها على أنها اختبار له ، وابتلاء لايمانه ، وامتحان لثقته ، وتهيئة لنفسه لتحيا حياة السعداء اذا انقضت اقامتها فى هذا العالم الشقى البغيض . ولكنه أظهر فى تلك الليلة غير ما تعود أن يظهر لاصحابه من الجلد والصبر ، ومن الاباء والاحتمال ، وهم يعرونه ويرققون به فى العزاء ، وهم يلومونه ويعنفون عليه فى اللوم ، وهم يأتون نفسه من جميع أبوابها يريدون أن يصرفوها عن هذا الحزن العميق ، وأن يصرفوا عنها بعض الهم الثقيل ، ولكنهم لا يبلغون منه شيئا ولا يزيدونه الا إغراقا فى الحزن وغلوا فى اليأس ، وربما بلغوا بأحاديثهم قرارة نفسه فأثاروها ودفعوه الى الحديث فاذا هو يتكلم بكلام تقطعه العبرات وتبلله الدموع . وكان نسطاس مالكا لصفوان بن أمية ، وكان قد أنفذ فى ذلك اليوم أمره فى أسير من أسرى الانصار يقال له زيد بن الدثنة دفعه الى صفوان وأمره أن يخرج به من الحرم ، حتى اذا بلغ به التنعيم قتله ثم عاد ، ولم يكن مثل هذا

المعتل يجيب الى نسطاس ، ولكنه لم يكن خليقاً أن يدفعه الى مثل هذا اليأس المهلك لولا أنه عرف من أمر أسيره وصريعه ، ومن أمر أصحابه ما عرف ، ولولا أنه رأى من أمر زيد ما رأى ، وسمع من أمر خبيب ماسمع ، وانتهت اليه أحاديث أولئك الذين أدركهم الموت قبل أن يحملهم الى مكة ويبيعهم لقريش غدر الغادرين من هذيل . ولكنه عرف ما عرف ، ورأى ما رأى ، وسمع ماسمع . فذكر أموراً كان يقرؤها فى الكتب ، واحداثاً كان يهلع لها حين يسمع أنباءها من الوعاظ . ذكر أولئك الشهداء الذين قتلوا فى المسيحية تقتيلا ، والذين امتحنوا بما كتب الله عليهم من ضروب المحن وفنون الكيد فلم تضعف نفوسهم ولم تهن عزائمهم ولم يفرطوا فى دينهم ولم يجد الشك الى نفوسهم سبيلا . ذكر أولئك الشهداء الذين أقاموا مجد المسيحية على اشلائهم وغذوه بدمائهم ، وقووه بضعفهم ، وأعزوه بما احتملوا فى سبيله من الذل ، وأيدوه بما لقوا فى سبيله من الأذى والآلام . ذكر أولئك الشهداء الذين كان يكبرهم ويجلهم ، ويرى أنهم شفعاؤه وشفعاء أمثاله عند الله ، وانهم قدوته الصالحة وأسوته الحسنة ومثله الأعلى ، وانه أسعد الناس لو استطاع أن يظفر ببعض ما ظفروا به من عذاب الدنيا ونعيم الآخرة ؛ ومن ذل الدنيا وعز الآخرة ؛ ومن هذا الموت الهين السريع الذى تتبعه حياة باقية سعيدة متصلة لاحد لما فيها من نعيم .

ذكر هؤلاء الشهداء وذكر أنه لم يزد حين أطاع أمر مولاه صفوان على أن قتل واحداً منهم ، واقترف ذلك الاثم الذى اقترفه الظالمون الذين اضطهدوا الشهداء وقتلوهم ؛ ثم قدموهم قرباناً الى آلهتهم وأوثانهم فى الزمن القديم . هنالك اضطربت نفسه اضطراباً ، وزلزل قلبه زلزالا ، ورأى حياته كلها وقد استحالت الى شر منكر ، ورأى ما قدم من الخير وقد استحال الى فساد ، ورأى ما احتمل من الآلام وقد أصبح هباء . وهنالك ملك الندم عليه أمره ، وملأ اليأس عليه قلبه ، وعجز أصحابه عن أن يمسوا نفسه بما كانوا يقدمون إليه من تسلية أو عزاء . على انه لم يكن يحس فى نفسه شيئاً من الموجدة على مولاه صفوان ، ولم يكن يضمر شيئاً من البغض ، انما كانت موجدته كلها وحقده كله قسمة بين نفسه وبين امرأة من قريش ، هى سلافة بنت سعيد بن سهم زوج طلحة ابن عبد الله بن عبد العزى . كان واجداً على نفسه أشد الموجدة ، مبغضاً لها أشد البغض لانها أثمت بقتل هذا الرجل الشهيد ، وكان حانقاً على سلافة حاقداً عليها لأنها هى أصل هذا الشر ، ومصدر هذا الاثم ، ومنشأ هذا البلاء . كان يقول لأصحابه : لولا أن هذه المرأة الآثمة نذرت ما نذرت ، واذاعت ما اذاعت فى أهل البادية ، لما دفع صفوان الى مادفع اليه ، ولما ظفر صفوان بما ظفر به ، ولما اشترى اسيره ، ولما انفذت امره فيه . قال أصحابه وما نذر سلافة وماذا اذاعت فى الأعراب ؟ قال اتذكرون يوم حشدت قريش لحرب صاحبها فى يثرب كيف كان اشراف مكة موتورين يأكل قلبهم الغيظ ، وتملأ نفسهم الحفيظة ، وتضطرب امامهم اشباح الخزى . يذكرون هزيمتهم حين لقوا صاحبهم لأول مرة ففعل بهم الافاعيل ، وترك من اشرافهم صرعى لم يثوبوا الى أهلهم ولم يستمتعوا بتجارتهم تلك الرابحة التى انقذها أبو سفيان . ويشفقون أن يتراءى لهم الموت فلا يثبتوا له ولا يقدروا على النظر اليه فيفروا منهزمين كما فروا من قبل . ويتركوا صرعى من اشرافهم كما تركوا مثلهم من قبل .

هنالك اجمعوا أمرهم على ان يتقووا بالنساء ويتقوا بهن الهزيمة والعار ، فاختاروا منهن اعلاهن قدراً وارفعهن شأناً وانبههن ذكراً واقدرهن على دفع الرجال الى غمرات الموت . وكانت سلافة بين هؤلاء النساء ، خرجت مع زوجها وبنيها الثلاثة ، وعادت مع المنتصرين ايماً ثكلى قد فقدت زوجها وفقدت بنيها

ثم سكت نسطاس كأنما يستحضر هولا يروع النفوس ويخلع القلوب . ثم عاد الى حديثه فى صوت هادىء بعيد فقال : ان كانت لوقعة مروعة حقاً تلك التى كانت عند يثرب . لقد عادت قريش تتحدث بالاعاجيب ، لقد عادت تتحدث بالاخوان يسعى بعضهم الى بعض بالموت . لقد عادت تتحدث بالامهات يدفعن ابناءهن الى أن يقتل الرجل منهم أخاه . لقد عادت تتحدث بأم مصعب بن عمير وقد قتل ابنها مصعب . فما كان لها أن تظهر عليه حزناً أو جزعاً لأنه كان من خصم قريش وأصحاب محمد ، لقد عادت قريش منتصرة تتحدث بأمر سلافة هذه وقد فقدت زوجها وتلقت ابنيها احدهما بعد صاحبه يبلغها وقد أصابه السهم فتضع رأسه على حجرها وتسأله يابني من أصابك ؟ فيقول ما أدرى ، ولكني سمعت قائلا يقول : خذها وأنا ابن الأفلح . ثم أصابني السهم .

(البقية على صفحة ٧١٥)